(٧)

الأدب المكشوف

لقد فطر الذكر من جنس الإنسان على الحب والغزل وتدوين أخبارهما سواء أكان موضوع مايسجله أدباً مستوراً أم مكشوفاً ونثراً بليغاً أم شعراً عالياً ، فإن رؤية الوجه الصبيح تنفى همه وتريح باله وتخلى بلباله ، وتحرك همته وتخفف أثقاله وتنفس عن كربه وتجلو صدأ قلبه ، ولذلك كان فى شعراء الإفرنج الأقدمين من المجون أكثر مما تجده فى أدب العرب ، لأن الحب كان محظوراً ممنوعاً بحكم الدين وعرف الآداب ، فلما مل النساء من فضائل العفة والحجاب والقناعة بالصلات المشروعة وتخلقن بأخلاق أخرى مجاراة للزمن واستغلالاً لضعف الرجال وانحلال الأخلاق ، كما يحدث فى أواخر الحضارات ، قل المجون عند الافرنج والعرب لزوال سببه ، ولأن ما كان يرمى اليه العاشق الماجن أو الناثر المتيم قد أصبح قريب المنال ، فلا حاجة لكاتب مثل رابليه ومونتنى ، ولا شاعر كراسين وكورنى ، ولا لمؤلف روميو وجوليت ، حتى ولا دانتى

الذى احتاج الى روح معشوقته بياتريس لتصحبه فى رحلته الى نعيم الجنة وجحيم النار ، إلى الإلحاح فى المجون أو مناشدة المحبوب أو الإفراط فى الغزل واستغنى شعراء الحرب عن الغزل جملة فى استهلال قصائدهم واستهجنوه ، وأصبح شعر دعبل :

لا يوينسنك من مخدرة   قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء الى مياسرة   والصعب يمكن بعدما جمحا

وأمثاله من نافلة القول .

ولكن الغريزة الجنسية وهى أقوى غرائز الانسان وإن وجدت فى فساد الزمن وتحلل الأخلاق واندثار الفضائل البيتية منفساً ومخرجاً ومفرجاً ، حتى استغنى الأدباء من الانشغال بها ، إلا أنها تفتأ تملأ فراغ الذهن وتملك زمام البدن ، ومن سن المراهقة الى الشيخوخة عند الجنسين ، فلابد من دراستها وتسجيلها عند الفنان والقصاص والراوية وعالم النفس ، لأنها وإن فقدت مكانتها فى الأدب ، وكانت مكان إشادة وتشبيب وتفاخر وتمجيد ، فلم تفقد تلك الغريزة مكانتها فى البدن والعقل والمخيلة والذاكرة والقلب والعاطفة.

ولكن ثوب النفاق الفضفاض الذى اتخذته الطبقات الغنية

والجماعات المثقفة ليستر حقيقتهم ، اقتضى أن يتأنقوا قبل أن يتعففوا ، ويتظاهروا بالفضيلة وهم يؤثرون لو يجاهرون بضدها مادامو يفعلون فى الخفاء نقيض ما يقولون فى العلانية، وقد يتخنون أكباشا للضحية من عهد الى عهد ، ليوهموا المعاصرين أنهم عاكفون على الاستقامة ، ناقمون على الاعوجاج ، عاملون على تقويمه ولو بالعقوبة الظالمة ، فكان من تلك الضحايا جيمس جويس الذى صادروا كتابه وأحرقوه وأعدموه وقاطعوا صاحبه وحرموه من ثمار عمله ، وأشد الأمم فى هذا النوع من الرياء المؤذى أمة الانجليز ، وقد بلغ الرياء قمته وأوجه وسمته وذروته فى عهد الملكة البائدة الشائخة منصورة (فيكتوريا) ، وكاد الرأى العام فى أخريات عهدها أن يختنق ، حتى دعاة النفاق منهم وأمة الرياء وحملة رايته ، ضاقوا به ذرعاً وصرحوا بأن دوام هذه الحال من المحال ، فأنقذهم الموت بقبض روح الملكة المتزمتة المتحرجة ، المكممة لأفواههم والمقيدة لأقلامهم والقابضة على تيار عواطفهم .

فلما انتهى عهدها بشروره ، رزقوا بعدها ملكاً محبوباً متساهلا لا يأنف أن يجالس بنات الهوى فى أندية إيكس الحمامات أو فيشى أو إيفيان ، وأن يسمح للمصورين أن يلتقطوا صورته فى

وسط سرب من الغوانى ذوات الجمال والدلال من الفرنسيات اللاعبات اللاهيات ، وكأن طول عهد أمه وكثرة السنين التى قضاها ولياً للعهد يترقب انتقالها إلى كهف مدافن الأسرة المالكة ، قد أيأساه من الوصول الى العرش ، فاستباح التمتع والتنقل والتزين والتحلى بالأزهار والجواهر والمغالاة فى انتقاء الثياب ، حتى أصبح عميد الأزياء ، وبادىء كل طراز ومبدعه ، دع عنك ثروته الطائلة وشهرته بالتبذير والإسراف ، فاجتذب النساء وفك عقدة التزمت ، وحل أربطة الحرج . وكان هذا بمثابة صمام الأمان الذى وقى الحياة الاجتماعية من الانفجار فى انجلترا ، وإن كانت قد انفجرت مرات متكررة انفجاراً داخلياً باطنياً معلوماً لكل من عاشرهم فى بلادهم واطلع على دخائل أمورهم ، ولا سيما الغرباء عنهم والنزلاء فى بيوتهم .

فالقول من هؤلاء إن جيمس جويس يفسد الأخلاق ويحارب الفضيلة وينشر الإباحية ، قول آفن وحجة واهية وحملة مرذولة ودعوى غير مقبولة .

ومن العبث قول بعضهم إن كتابه يقرأ من آخره الى أوله كما يقرأ من أوله لآخره ، وقولهم إنه أضاع وقته بذكر مالا ينبغى ذكره

حيناً ، وحيناً بذكر مالا يجدى نفعاً ، فهؤلاء عابوا قولاً سليماً وفناً رفيعاً لم يبلغوا شأوه ، وأولئك أخفوا حقاً وجانبوا صدقاً ، وقد قضوا أعمارهم كلها فى الحرفة التى مارسها جويس بضع سنين ، وفى التماس التقريظ والثناء مهما كثر وانقاء النقد والملام والتفنيد مهما قل ، لأن الأول يجلب الربح ويروج لكتبهم ، والثانى يصرف القراء ويقلل دخلهم ، ثم إن صنعتهم أن يكونوا كتاباً ونقاداً يتقنون التأويل والتجريح ويلتمسون المعاذير ، مذهبهم التساهل والتسامح فى حق كل أديب ناشىء وشعارهم عين الرضا عن كل عيب كليلة ، فماذا ضرهم لو أنهم أولوا ما أنكروه فى كتابه من أول وهلة وتمحلوا كما هو دأبهم أن يجعلوا منه حسناً ما يزعمون أنه قبيح ، ومستظرفاً ما يلوح من خلال عبارته مخالفاً للذوق العام أو العرف الشائع فى عصر النفاق ؟

هذا يقال لبرنارد شو و د٠هـ لورانس وأمثالهما ممن حملوا على الكتاب حملة منكرة ، وقد شهدوا وعلموا أن هـ٠ج٠ ويلز وآرثور سيموندز وازرا باوند وأرنولد بنيت – وهم أعظم من المخالفين شهرة – قد مدحوه وأثنوا عليه وأعدوا له مكانه من الخلود وأعانوه على الزمن ٠

والجواب على ذلك أنها قلوبهم التى أكلها الحقد والحسد ، وقد يكون عدم الإدراك والفهم ، ولكنه عذر غير مقبول فى حق الذين زعموا أنهم أعلام العصر وفحول الأدب الانجليزى وعجول النقد المعبودة فى عصر الإنحلال .

وقد أخذوا يضجون ويعجون ويجأرون وينعرون ويصخبون ويتوعدون ويتهددون ويتذمرون ويدسون عليه ويلغون ويحرضون ويحركون ويتحرفون حتى فازوا بإهاجة الحكام والجواسيس والصحافة والمحاكم والقراء والعامة والسوقة ، فتربصوا للكتاب وتصيدوه وصادروه وأحرقوه وأعدموه وصادروا المؤلف فى رزقه وشوهوا سمعته وعطلوا شهرته وطعنوا صيته فى الصميم ، ولكن كل هذا لم يفلح وانتصر جويس في النهاية ، وأجمعت الكافة من الخاصة وأولى الألباب على أن كتابه أعظم كتاب فى عصره وأتقنه وأحسنه وأبدعه وأصعبه فناً وأغزره مادة وأصوبه غاية .

وهذا البرنارد شو رئيس الجوقة وزعيم الفرقة والإمام الأكبر البالغ أرذل العمر ، المباهى بالزهادة فى اللحم والتبغ والخمر – ولم يتعفف عن أكل لحم أخيه فى الوطن والعقيدة والجنس واللغة وصنعة الأدب وابنه فى السن والنزعة والمذهب – لم ينس له القراء فحش

القول فى « ضيعة مسزوارنز » وغيرها من المسرحيات ، ولا علاقته القديمة بمسز آنى برانت وميس فار وغيرهن من الممثلات الجميلات وقد أرهقهن بتذلله وتحككه وتظرفه وتقربه حتى هربن من وجهه وفارقن لجاجته فى تحببه إليهن ، وفر بعضهن الى الهند واتخذن الرهبنة والتصوف ليخلصن إلى الأبد من جنس الرجال ، وأقبلن على هذه التضحية النادرة نذراً وكفارة عن سابق علاقتهن بهذا «الساتير» ذى القرنين والحافرين واللحية الشمطاء .